

الشام في رحلة ابن جبير الكنانى

الدكتورة فاطمة بلهوارى (*)

U _____ u

تقديم

تمثل الرحلة في حد ذاتها انطباعات من سنوات التجوال للعلماء الشبان الذين كان هدفهم الأول هو الرغبة في ارتياد مراكز العلم في بلاد المشرق، والجلوس إلى العلماء والأساتذة والشيوخ، والأخذ عنهم ومجاورتهم والرواية عنهم حرصاً على الإسناد العالي، الذي يصل الطلبة بمؤلفي كتب الحديث وغيرها من المصادر الشرعية^(١).

وفي السياق نفسه بيّن عبد الرحمن بن خلدون أهمية الرحلة العلمية في قوله : «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً وأقوى رسوخاً فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»^(٢).

(*) قسم التاريخ وعلم الآثار — جامعة وهران — الجزائر.

(١) الرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، ص ٣٢٠.

(٢) المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق، درويش جويدي، ص ٥٣٩ — ٥٤٠.

بلهاري

كانت الرحلة سجلاً يكشف عن المصادر الثقافية التي ارتوى منها العالم، والأصول التي اعتمد عليها، والتي كانت من دون ريب مرجعاً له فيما ألف من المصنفات^(١). واعتبرت جانباً مهماً في تقدم الأدب الجغرافي الإسلامي، ومصدراً موثقاً به إلى حد كبير، إذ كان الرحالة دقيق الملاحظة موقظ الذهن حتى أصبحت كتب بعضهم من معالم الأدب العالمي^(٢).

لقد أسهب الرحالون المغاربة بتسجيل كل المعلومات والحقائق من وقائع تاريخية وحضارية وأوصاف جغرافية، للبلاد التي زاروها وبخاصة بلاد المشرق، لذلك أصبحت مؤلفاتهم مصدراً للدارسين والباحثين في التاريخ السياسي والثقافي والاجتماعي لهذه البلاد. فالقيمة التاريخية لهذه المؤلفات المغربية لا تقف عند القضايا التاريخية التقليدية كذكر الأوضاع السياسية والاقتصادية وأحوال الخلفاء والأمراء والولاة ومعرفة النظم السياسية والإدارية والقضائية، بل تتجاوزها إلى ذكر أوصاف وتفاصيل دقيقة عن المجتمع وفضاءاته من عادات وذهنيات، وعن العلم والعلماء، ولعل خير شاهد يذكر في هذا الصدد هو كتاب «رحلة ابن جبير الكناني» الذي اخترناه نموذجاً لهذه الدراسة.

أولاً: نبذة عن ابن جبير

١ - نسبه

ولد أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير البلنسي الأصل الغرناطي الموطن في بلنسية أو شاطبة في ١٠ ربيع الأول سنة ٥٣٩هـ أو ٥٤٠هـ / ١١٤٤م أو ١١٤٥م^(٣)، وتوفي في الإسكندرية سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م. ويعتبر القاسم بن يوسف التجيبي^(٤) من الأوائل الذين ترجموا لحياته، إذ ذكر سلسلة نسبه هذا الرحالة فقال عنه «هو الأديب الفاضل الزاهد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن عبد السلام بن جبير الكناني الداخل إلى الأندلس مع بلج القشيري^(٥)». وينحدر ابن جبير من أسرة عربية عريقة سكنت الأندلس قادمة من المشرق، وقد كفانا ابن الخطيب مؤونة البحث في بقية سلسلة نسبه فأكمل ما ورد عن التجيبي في قوله : «دخل جده

(١) الرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، ص ٣٢٢.

(٢) الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص ٩.

(٣) لإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، شرح وتقديم، يوسف علي الطويل، ج ٢، ص ١٤٦، ١٥٢. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق، إحسان عباس، ج ٢، ص ٣٨٢.

(٤) هو أبو القاسم بن يوسف بن محمد السبتي التجيبي من مواليد سبتة في سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م زمن حكم بني مرين للمغرب الأقصى، وله مؤلف حول رحلته نحو بلاد المشرق، بعنوان «مستفاد الرحلة والاعتراب»، نقلاً عن كتاب الرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، ص ٣٥٥.

(٥) «مستفاد الرحلة والاعتراب» نقلاً عن المرجع نفسه، ص ٣٢٣.

عبد السلام بن جبير في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري في محرم ثلاث وعشرين ومئة وكان نزوله بكورة شدونة، وهو من ولد ضمرة بن كنانة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(١). وأضاف عبد المالك المراكشي أن أباه حل بشاطبة، فاستوطن هو جيان ثم غرناطة ثم فاس إلى أن توفي بالإسكندرية، وقد تجول في العديد من مدن الغرب الإسلامي حسبما اقتضته الأحوال^(٢).

٢ - مشيخته

ألم ابن الخطيب بشيوخ ابن جبير، ففصل في ذكرهم مستهلاً الحديث بشغف هذا الرحالة بعلوم الدين، فسمعها من أبيه، وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن محمد بن أبي العيش وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس، وابن الأصلي. وتعلم قواعد العربية عن أبي الحجاج بن يسعون، وأخذ بسبته عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي السبتي^(٣).

ولقي ابن جبير في رحلته العديد من أعلام العلماء وأكابر الزهاد والفضلاء أثناء رحلته لأداء فريضة الحج، ومنهم بمكة الشريفة ضياء الدين بن أحمد بن عبد الوهاب بن علي بن سكينه، وأبو إبراهيم بن إسحاق بن عبد الله الغساني التونسي، وأبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي المياني، نزيلة مكة، وأبو جعفر أحمد بن علي القرطبي الفنكي، وأبو محمد عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندي^(٤) رئيس الشافعية بإصبهان^(٥). وأخذ العلم ببغداد عن العالم الواعظ المستبحر أبو الفرج، وكناه أبو الفضل ابن الجوزي وحضر بعض مجالسه الوعظية وقال فيه: «فشاهدنا رجلاً ليس بعمر ولا زيد وفي جوف الفرا كل الصيّد»^(٦).

وروى بدمشق عن أبي الحسن أحمد بن حمزة بن علي بن الحسين بن الحسن بن علي بن محمد بن أبي عبد الله بن عباس السلمي بن الموازيني، وأبي سعيد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، وأبي الطاهر بركات الخشوعي، وسمع عليه، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني الكتاب بن أله، وأخذ عنه بعض كلامه وغيره، وأبي القاسم عبد

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ج ٢، ص ١٤٦.

(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، عبد المالك المراكشي، تحقيق إحسان عباس، السفر الخامس، القسم الثاني، ص ٥٩٦.

(٣) المصدر نفسه، نفس الصفحة. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ج ٢، ص ١٤٦.

(٤) هو عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندي أبو القاسم صدر الدين من أهل أصبهان كان أدبياً واعظاً توفي سنة ٥٨٠هـ، نفح الطيب، المقرئ، ص ٣٨٢، هامش ١.

(٥) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، عبد المالك المراكشي، ج ٥، ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

(٦) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

بلهاري

الرحمن بن الحسين بن الخضر بن عبدان وأبوا محمد عبد الرازق بن نصر بن مسلم النجار والقاسم بن علي بن عساكر، وسمع عليه، وأبي الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم والحسين ابن هبة الله بن محفوظ بن صصرى الربيعي التغلبي وعبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد الصوفي، وأجازوا له، وبحرّان الصوفي العارف أبي البركات حيان بن عبد العزيز وابنه الحاذي حذوه^(١).

٣ - سلسلة العلماء الذين أخذوا عنه

وأخذ عن ابن جبير عدد كبير منهم أبو إسحاق بن مهيب وابن الواعظ وأبو تمام بن إسماعيل، وأبو الحسن بن نصر بن أبي نصر الفاتح بن عبد الله البجائي، مقيم ببعض بلاد المشرق وابن محمد الشاري، وأبو سليمان بن حوط الله، وأبو زكريا، وأبو بكر يحيى بن عبد الملك بن أبي الغصن وأبو عبد الله بن حسن بن مجبر، وآباء العباس: ابن عبد المؤمن والنباتي وابن محمد بن حسن اللواتي بن تامنيت، وابن محمد المروروي، وأبوا عمر بن سالم، وعثمان بن سفيان بن الشقر التميمي التونسي^(٢).

٤ - وظيفته الإدارية

التحق ابن جبير مبكراً بأعمال الدواوين والكتابة كأبيه، وقد بلغ من علو الشأن أن صار كاتباً لأبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن عامل الموحدين على غرناطة^(٣). وليس بالغريب أن يتبوأ هذه المكانة، فقد كان كما وصفه ابن الخطيب عند ترجمته له أديباً بارعاً، وشاعراً مجيداً، سنياً فاضلاً، ونزیه الهمة، وسري النفس، وكريم الأخلاق، وأنيق الطريقة في الخط^(٤).

(١) نفسه، نفس الصفحة. يراجع سلسلة المشيخة في الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ج ٢، ص ١٤٧ — ١٤٨.

(٢) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، عبد المالك المراكشي، ج ٥، ص ٥٩٦ — ٥٩٧. يراجع سلسلة من روى عليه في الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، ج ٢، ص ١٤٨.

(٣) ورد في الذيل والتكملة «في شبيبته» ص ٦٠٧، بينما ذكر ابن الخطيب سبته، مما يجعلنا نشك في روايته لأنه لم يرد أن تولى أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ولاية سبته بل تقلد ولاية غرناطة، يراجع، أخبار المهدي بن تومرت، أبو بكر بن علي الصنهاجي (البندق)، تحقيق، عبد الحميد حاجيات، ص ١١٠. العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن ابن خلدون، ج ٦، ص ٢٣٨. الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماهم ونظمهم، عز الدين عمر موسى، ص ١٨١، ١٥١، ٣٢١.

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، ص ١٤٦.

٥ - تصانيفه

لم يلبث أن اشتهر ابن جبير ككاتب وشاعر صاحب ديوان شعر متعدد الرواية، ويبدو أن هذا الديوان قد ضاع مع العديد من المصنفات الأندلسية، ولولا ظاهرة الاقتباس التي شاعت خلال هذه الحقبة التاريخية ما تسنى لنا أن نعرف تراثنا المفقود. ومن حسن الطالع وردت إشارة عند عبد المالك المراكشي ما يدعم زعمنا هذا في قوله أنه وقف على مجلد متوسط يكون قدر ديوان أبي تمام حبيب بن أوس، ومنه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» في رثاء زوجه أم المجد وهو يزيد عن ثلاثمئة بيت، بالإضافة إلى نظمه في فن الموشحات، ومنها جزء سماه «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان» يشتمل على أزيد من مئتي بيت في قطع، وله ترسيل بديع وحكم مستجادة. دون ذلك كله ونقل عنه^(١)، كما ترك رسائل نثرية لكنها ليست في مستوى الشعر من حيث الشهرة، وقد اعتنى بنقلها كل من عبد الملك المراكشي^(٢)، وابن الخطيب^(٣)، والمقري^(٤).

ثم نزع ابن جبير عن ذلك، وتوجه في رحلات إلى المشرق، وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها «براعته وإجادته، ونظمه فائق، ونثره بديع، وكلامه المرسل سهل حسن، وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير»^(٥).

ثانيا: رحلة ابن جبير

لقد قام ابن جبير بثلاثة رحلات انطلق من بلاد الأندلس إلى المشرق، وحج في كل واحدة منها، فكانت الأولى بتاريخ ٥٧٨هـ/١١٨٣ م والثانية في ٥٨٥هـ/١١٨٩ م حيث قوي عزمه للرحلة بعد شيوخ خبر فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي^(١). أما الرحلة الأخيرة فكانت في عام ٦٠١هـ/١٢٠٤ م من مدينة سبتة بعد موت زوجه عاتكة أم المجد، قام بها بعد أن تقدم به السن ولم يرجع بعدها إلى الأندلس، بل أمضى بقية عمره متنقلا بين مكة المكرمة وبيت المقدس والقاهرة مشغلا بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧ م.

وقد عنى المستشرق الروسي كراتشكوفسكي عناية خاصة بابن جبير، حيث تمثل ترجمته من أوسع التراجم الحديثة له، فقدم تقييما هاما لرحلته الأولى، وهي التي صنف وذكر مناقله

(٢) الذيل والتكملة، عبد المالك المراكشي، ٦٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٠٨ - ٦٠٩.

(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٥) نفع الطيب، المقري، ص ٤٨٥، ٤٩٤.

(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب، ص ١٤٦.

(٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٤٧.

بلهاري

فيها وما شاهده من عجائب البلدان، وغرائب المشاهد، وبدائع المصانع، وهو كتاب مؤنس ممتع، مثير سواكن النفوس إلى الوفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد المعظمة»^(١). وبدأت هذه الرحلة لهذا المستشرق على هيئة «يوميات» أي أشبه بما يعرف في الوقت الحاضر «بمذكرات». إذ كان وصفه لما يشاهده أكثر تفصيلاً وتدقيقاً، وذلك في كتاب منفرد وضعه بعد رجوعه سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م^(٢). واختلف حول عنوانه الذي بدا غير معروف بالضبط فقد جعلها حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون» باسم «رحلة الكنائي» غير أن مقدمة الرحلة تبتدئ بعنوان «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» كما تنتهي بعنوان آخر «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك».

ومما لا شك فيه أن ابن جبیر كان رائداً في الرحلة، وخاصة بين رحالة المغرب، فهو بحق من أوسع الرحالين العرب فكراً وأشملمهم ملاحظات وأجملهم أسلوباً وأنقاهم تعبيراً وأسلسهم بياناً، وأعظمهم استنتاجاً وإدراكاً، وأكثرهم اهتماماً بالأوضاع السياسية الإسلامية العامة في زمنه، وأشدهم اهتماماً بتتبع أحوالها واستقصاء أدوائها وعلاجها^(٣). وبالتالي إن رحلته تمثل أهمية قصوى في تصوير حياة ذلك العصر، وهي تقدم وصفاً حياً لمصر والشام عندما بدأت فيهما حركة التحرير الإسلامية ضد الصليبيين بقيادة نور الدين الزنكي وولديه محمود وصلاح الدين^(٤). وقد بلغت من الناحية الفنية ذروة ما وصل إليه نمط الرحلة في الأدب العربي كما ذهب في ذلك كراتشكوفسكي^(٥).

وقد سار على دربه الكثير من الرحالة والمؤرخين الذين أتوا بعده، وليس أدل عن ذلك من تهافت المؤرخين من القدامى والمحدثين على الترجمة له وتحقيق ونشر رحلته، وقدم ابن الخطيب تقييماً خاصاً لرحلته في قوله أنها «نسيجة وحدها، طارت كل مطار»^(٦).

ثالثاً : الشام في رحلة ابن جبیر

غادر ابن جبیر غرناطة في رحلته الأولى إلى المشرق يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨هـ/ ٣ فبراير ١١٨٣م برفقة صديق له من المشتغلين بالطب يدعى أبو جعفر أحمد بن

(١) الذيل والتكملة ، عبد المالك المراكشي ، ص ٥٩٧ — ٥٩٨ .

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي ، ترجمة ، صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول، ص ٢٩٩.

(٣) الرحلة والرحالة المسلمون ، أحمد رمضان أحمد، ص ٣٢٤.

(٤) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي، ص ٣٠٠.

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٩٩.

(٦) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن خطيب ، ص ١٤٦.

حسان بن أحمد بن الحسن القضاعي^(١)، كان يعمل معه في الكتابة بالديوان الموحدى في غرناطة، ولم يكونا يقصدان شهود موسم الحج لتلك السنة، فالرحلة كانت تستغرق وقتاً طويلاً، غير أن الحاج الأندلسى كان يخرج مبكراً في مثل هذا الموعد تجنباً للطوارئ^(٢). لم يسلك ابن جبير في رحلته هذه إلى الأراضى الحجازية الطريق البحرى الذى كان معظم الرحالة المغاربة يسلكونه إلى غاية وصولهم إلى أحد موانئ بلاد الشام ليرافق ركب الحجيج الشامى، نظراً للوجود الصليبي في بلاد الشام، فاضطر إلى تغيير مساره، إذ استهل خط سيره بالمرور بسبته وسار بمحاذاة سواحل سردينيا وصقلية حتى دخل ميناء الإسكندرية، ومنها ركب النيل إلى القاهرة، ثم غادرها إلى صعيد مصر فوصل إلى مرفأ عيذاب وهو المرفأ المعهود للحجاج على البحر الأحمر.

ونزل هذا الرحالة بجدة ثم اتجه نحو مكة حوالي نصف عام وبعدها مر بالمدينة، وفي عودته من أداء فريضة الحج اجتاز الطريق النجدى إلى الكوفة وزار بغداد وسامراء فالموصل فحلب فحمص ومنها إلى دمشق، التي أمضى بها بضعة أشهر قبل أن يغادر الأراضى الإسلامية، وقد كانت سواحل الشام آنذاك تحت قبضة الصليبيين. فأقام في دمشق حتى جمادى الآخرة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م، فكأنه قضى فيها قرابة السبعين يوماً، وهي مدة طويلة إذا ما قورنت بتلك التي قضاها في بغداد، وليس مرد هذه الإقامة إلا إلى ذلك الأنس الذي كان الأندلسيون يجدونه في عاصمة الشام، بالإضافة إلى التشابه والتقارب في البيئة الطبيعية وطبائع أهلها المؤنسة، وهذا الأنس مصداق ما يذكرونه الجغرافيون الأندلسيون عن بلادهم من أنها شامية، كما جرت عادة الرحالة المغاربة والأندلسيين ألا يطيل المقام في دمشق أو غيرها من مدن الشام^(٣).

وبالتالى، كيف صور ابن جبير بلاد الشام في رحلته هذه؟ وهل سيثمن تلك الصورة التي ورثها عن سلفه عند ذكرهم للمنطقة؟ وما هي المجالات التي اعتنى بتصويرها؟ وهذا ما سنفصل فيه في ثنايا هذا المقال.

(١) أصله من أندية من بلنسية ن كان متحققا بعلم الطب، وله فيه تقييد مفيد، إلى جانب تحصيله الكامل في فنون العلم، وكتب

هو الآخر لأبى سعيد عثمان ابن عبد المؤمن، توفي بمراكش سنة ٥٩٩هـ أو ٥٩٨هـ. نفح الطيب، المقرئ، ج ٢،

ص ٣٨٣. رحلة ابن جبير، ابن جبير، ص ٧.

(٢) الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص ٤٣١.

(٣) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

- ذكره للحد الجغرافي والسياسي للشام

بدأ ابن جببر برسم حدود بلاد الشام في قوله: «وإذا عبرت الفرات حصلت في حد الشام، والفرات حد بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر وعن يسار الطريق، في استقبالك الفرات إلى الشام مدينة الرقة وهي على الفرات، وتليها رحبة مالك بن طوق وتعرف برحبة الشام»^(١). كما أطلعنا بتبعية هذه المنطقة سياسيا إلى دار الإسلام، إذ قال: «وإذا عبرت حد الشام وسرت في طاعة صلاح الدين إلى دمشق»^(٢).

٢ - وصفه لطبيعة بلاد الشام

قدم ابن جببر وصفا شاملا لمدن الشام صغيرها وكبيرها، قراها وحواضرها، وقد شملت أوصافه قضايا حضارية، وأخباراً سياسية تخص هذه البلاد، وبالمثل اعتنى بجغرافيتها من تضاريس ومناخ ومصادر مياه فيها، كقوله في وصف مدينة منبج: «أنها فسيحة الأرجاء صحيحة الهواء...جوها صقيل ومجتلاها جميل، ونسيمها أريج النثر عليل... والماء يطرد فيها، ويتخلل جميع نواحيها...»^(٣). وكذا القول ينطبق على قلعة حلب: «فهي قلعة شهيرة الامتناع، بآنية الارتفاع معدومة الشبه والنظير في القلاع...قاعدة كبيرة ومائدة من الأرض مستديرة، منحوتة الأرجاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء، فسبحان من أحكم تقديرها وتدبيرها، وأبدع كيف شاء تصويرها وتدويرها...»^(٤).

وقد وضعت مدينة حماة «في وهدة من الأرض عريضة مستطيلة، كأنها خندق عميق، يرتفع لها جانبان : أحدهما كالجبل المطل، والمدينة العليا متصلة بصفح ذلك الجانب الجبلي، والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة، قد تولى نحتها الزمان، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه، وكلتا المدينتين صغيرتان»^(٥). وبالمثل وصفت تضاريس مدينة حمص أنها «فسيحة الساحة، مستطيلة المساحة...موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه، لا

(١) الرحلة ، ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

(٣) نفسه ، نفس الصفحة .

(٤) نفسه ، نفس الصفحة.

(٥) نفسه ، ص ٢٣٠ .

يخترقه النسيم بمسراه... فهي تشتكي ظمأها، وتستقي على بعد ماءها، فيجلب لها من نهيرها العاصي، وهو منها بنحو مسافة ميل...»^(١).

أما مدينة دمشق فقد أولى ابن جبیر عناية بالغة بوصف جمال طبيعتها، وقد يكون من المفيد أن ننقل بعض الفقرات هنا، فدمشق هي «جنة المشرق، ومطلع حسنه المونق المشرق، هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في الحلل سندسية من البساتين، وحلت من موضع الحسن بمكان مكين، وتزينت في منصتها أجمل تزيين»^(٢). وختم الوصف: «إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء بحيث تسامتها وتحاذيها»^(٣).

ولقد نقل المقرئ تعليق أبي جابر الوادي أشي على هذا الوصف في قوله: «لقد أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد، هذا ولم تكن له بها إقامة، فيعرب عنها بحقيقة علامة، وما وصف ذهبيات أصيلها وقد حان من الشمس غروب، ولا أزمان فصولها المتنوعات ولا أوقات سرورها المهنئات، ولقد أنصف من قال: ألفيتها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهي وتلذ الأعين»^(٤).

٣ - اهتمامه بالموضوعات الاقتصادية

تطرق ابن جبیر إلى ذكر بعض الجوانب من الحياة الاقتصادية لمدن بلاد الشام كوصفه لمدينة منبج في قوله: «وأرضها أرض كريمة، تنبسط مياها كلها. وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ودكاكينها وحوانيئها كأنها خانات والمخازن اتساعا وكبرا، وأعالي أسواقها مسقفة، وعلى هذا الترتيب أسواق أكثر مدن هذه الجهات»^(٥). غير أنه لخص الوصف لسوق بلدة بزاعة في ذكره: «بها سوق تجمع بين المرافق السفرية، والمتاجر الحضرية...»^(٦). في حين استطرد القول في ذكر بعض الجوانب من الحياة الاقتصادية لحلب أن: «البلد فموضوعة ضخم جدا، حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة،

(١) نفسه، ص ٢٣٢.

(٢) نفسه، ص ٢٣٤.

(٣) نفسه، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٤) نفح الطيب، ص ٣٨٧.

(٥) الرحلة ص ٢٢٣.

(٦) نفسه، ص ٢٢٤.

تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب... فكل سوق منها تفيد الأبصار حسنا وتستوقف المستوفز تعجبا»^(١).

وأطنب ابن جبير في الحديث عند تصويره لقيساريات هذه المدينة — حلب — وما تتنوع عليه من الصناعات والحرف في قوله: «وأما قيسارياتها فحديقة بستان نظافة وجمالا، مطيفة بالجامع المكرم»^(٢)، «وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت، فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم»^(٣).

وبالمثل، حظيت مدينة حماة بتفصيل عنده في جوانبها الاقتصادية، ومما ذكره عنها أن «ربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته إلى أن يفرغ لدخول المدينة، وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات، وموضوعها حسن التنظيم، بديع الترتيب والنقش»^(٤).

أما أسواق دمشق فقد انبهر ابن جبير بتنظيمها فقال عنها: «وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاما وأبدعها وضعًا، ولا سيما قيسارياتها، وهي مرتفعات كأنها الفنادق متقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية منفردة بضبتها وأغلاقها الحديدية. ولها أيضا سوق، يعرف بالسوق الكبير»^(٥).

ولم يغفل هذا الرحالة ذكر ما كان في زمنه المرتبط بالحروب الصليبية من مودة وعلاقات تجارية بين المسلمين والنصارى فمن ذلك قوله: «ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم... إلا أن ذلك لا يمس الرعايا والتجار»^(٦). كما شد انتباهه «اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الأمانة على الغاية، وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في

(١) نفسه، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢) نفسه، ص ٢٢٧.

(٣) نفسه، نفس الصفحة.

(٤) نفسه، ص ٢٣١.

(٥) نفسه، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٦) نفسه، ص ٢٦٠ - ٢٦١.

جميع الأحوال، وأهل الحرب مشغولون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب»^(١). وهذا النص التاريخي شهادة حية لعدم تأثر أحوال التجارة خلال هذه الحقبة الحرجة من تاريخ المسلمين بالحرب القائمة بينهم وبين النصارى. والملاحظ أنه سجل ما كان يشد انتباهه إيجاباً أم سلباً في القضايا الاقتصادية ومن الأمثلة عن ذلك حديثه عن أسواق حمص أنها «لا رونق لها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها»^(٢).

كذلك لم يخجل ابن جببر من ذكر أن الفلاحين المسلمين في الأرض التابعة للنصارى كانوا في رخاء يحسدهم عليه إخوانهم الفلاحون المسلمون عند الملاك المسلمين، وفي ذلك ذكر: «ورحلنا من سحر تبنين يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه... وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رسائيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رسائيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله»^(٣).

٤ - تصويره للمجتمع الشامي

تطرق ابن جببر إلى تركيبة المجتمع الشامي، في مواضع متفرقة من رحلته، واحتل العنصر الذي عرف بالغرباء مكانة خاصة عنده، إذ اهتم بذكر أحوال الجالية المغربية بأرض الشام، فهم عرفوا أيضاً بالغرباء. فذكر عند حديثه عن مناقب السلطان نور الدين الزنكي أن عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع بدمشق أوقافاً كثيرة، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمّام ودكاكين بالعطارين^(٤).

وقد ثمن وزكى هذا الرحالة الهجرة إلى بلاد المشرق فوجه نداء لطلبة العلم من المغاربة في شد رحيلهم إلى الشام خاصة، وهذا للحفاوة التي يتلقاها طالب العلم من إكرام الغرباء وإيثار الفقراء بهذه الديار وبخاصة من أهل باديتها، في قوله: «فمن شاء الفلاح من نشأة

(١) نفسه، ص ٢٦٠.

(٢) نفسه، ص ٢٣٢.

(٣) نفسه، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٤) نفسه، ص ٢٥٧.

بلهاري

مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمّها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسوية، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي، فهذا المشرق مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد وتفرع سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد لا إله سواه، قد نصحت إن ألفت سامعا، وناديت إن أسمعت مجيبا^(١). وفي هذا دلالة على شعوره بالراحة النفسية والفائدة العلمية بين إخوانه المشاركة.

ولم يغض ابن خبير الطرف في ذكر مآثر النصارى المجاورين لجبل لبنان والذين يشكلون مع غيرهم ملل المجتمع الشامي، «فإذا رأوا به — جبل لبنان — بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم»^(٢).

ونالت القضايا الاجتماعية اهتمامه إذ ذكر بعض خصال سكان الشام ومن جملة ما وصف حديثه عن أهل مبنج في قوله: «وأهلها أهل فضل وخير، سنيون شافعيون، وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة، والعقائد الفاسدة... فمعاملاتهم صحيحة، وأحوالهم مستقيمة، وجادتهم الواضحة في دينهم من اعتراض بنيات الطريق سليمة»^(٣). وكذلك تناول ذكر خصال أهل حمص في قوله: «وأهل هذه بلدة موصوفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم إياهم»^(٤).

٥ - اهتمامه بالتطورات التاريخية

اهتم ابن جبير أثناء وصفه لمدينة ما ببعض الأحداث التاريخية الخاصة بها مثل تحديد زمن بنائها أو خرابها وبعض الأحداث السياسية التي شهدتها كحديثه عن مدينة منبج التي «تعاقبت عليها الأحقاب، حتى أخذ منها الخراب، وكانت من مدن الروم العتيقة ولهم فيها من

(١) نفسه، ص ٢٥٨.

(٢) نفسه، ص ٢٥٩.

(٣) نفسه، ص ٢٢٤.

(٤) نفسه، ص ٢٣٢.

البناء آثار تدل على عظم اعتنائهم بها»^(١). أما مدينة حلب فقد حز في نفسه تراجع زمن الحمدانيين بها في قوله: «عتيقة في الأزل، حديثة وإن لم تنزل، قد طاولت الأيام والأعوام، وشيعت الخواص والعوام، هذه منازلها وديارها، فأين سكانها قديما وعمارها؟ وتلك دار مملكتها وفناؤها، فأين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها؟ أجل فني جميعهم، ولم يأن بعد فناؤها! فيا عجباً للبلاد تبقى وتذهب أملاكها...»^(٢).

وقد أشار ابن جببر إلى احتلال الإفرنج لبعض مدن الشام مثل انطاكية واللاذقية، واعتبر جبل لبنان الحد الفاصل بين حكم المسلمين والإفرنج للمنطقة، وذلك في قوله: «وجبل لبنان هو الحد الفاصل بين بلاد المسلمين والإفرنج، لأن وراءه انطاكية واللاذقية وسواها من بلادهم، أعادها الله للمسلمين، وفي صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد هو للإفرنج، ويغيرون منه على حماه وحمص...»^(٣).

وتعتبر الأخبار التاريخية التي وردت في رحلة ابن جببر شهادة حية عن الوضع السياسي والعسكري لبلاد الشام، إذ يعتبر شاهد عيان لأحداث تلك البلاد، فقد شهد حصار السلطان صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب لحصن الكرك^(٤)، في قوله: «إنا بهذه البلدة - دمشق - نازلون منذ شهرين اثنين وحللنا وقد خرج - صلاح الدين الأيوبي - لمنازلة حصن الكرك»^(٥). و قوله كذلك: «والشام أكثره بيد الإفرنج» كما أشاد بمآثر هذا السلطان في مواجهة الإفرنج دفاعاً عن الإسلام والمسلمين، فهو لا يأوي لراحة، ولا يخلد لدعة، ولا يزال سرجه مجلسه^(٦).

٦ - ذكره للمعالم العمرانية

«اهتم ابن جببر بذكر العمائر والمباني الأثرية المباركة لبلاد شام والتي مر بها، إذ وصف المدرسة الحنفية التي كانت تقع في الناحية الغربية من جامع حلب وهي من أحفل ما شهده

(٥) نفسه، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(١) نفسه، ص ٢٢٥.

(٢) نفسه، ص ٢٢٩.

(٣) وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلاً وهو سرارة أرض فلسطين، نفسه، ص ٢٦٠.

(٤) نفسه، ص ٢٧٠.

(٥) نفسه، نفس الصفحة.

بلهاري

من المدارس بناء وغرابة صنعة، ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتوح كله بيوتا وغرفا ولها طيقان يتصل بعضها ببعض...»^(١). وأطنب في الوصف حول خان السلطان، والذي بناه صلاح الدين الأيوبي صاحب الشام، وهو في نهاية الوثاقة والحسن، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالهم في تشييدها، وفي هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج...^(٢).

ومما ورد من ذكر للمعالم العمرانية في رحلة ابن جبير وصفه للجامع الكبير المبارك بمدينة دمشق وسنستشهد هنا بمقتطفات من ذلك، حيث تعرض إلى ذكر تزييعه ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته إذ قال: «هو من أشهر جوامع الإسلام حسنا، وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين. وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه... انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك رحمه الله، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثني عشر ألفا من الصناع من بلاده... وبلغت الغايات في التأنق فيه، وأنزلت جدره كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء وخطت بها أنواع من الأصبغة الغربية، قد مثلت أشجارا وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص، ببدايع من الصنعة الأنيفة المعجزة وصف كل واصف، فجاء يغشي العيون وميضا وبصيصا»^(٣).

وقد فصل ابن جبير وصف الجامع، إذ ذكر تاريخ توسيعه على يد الخليفة الوليد بن عبد الملك والذي أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصاري وأدخلها لأنه كان قسمين: قسما للمسامين وهو الشرقي، وقسماً للنصارى وهو الغربي، وبالجامع ثلاث مقصورات، وبه عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة. وللجامع ثلاث صوامع، وفي الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضي الله عنه، وهو المصحف الذي وجه به إلى الشام. وتقام فيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها الطلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم^(٤).

(٦) نفسه، ص ٢٢٦ — ٢٢٧.

(١) نفسه، ص ٢٣٣.

(٢) نفسه، ص ٢٣٥.

(٣) نفسه، ص ٢٣٥، ٢٤٥.

وكما افتنن ابن جبير بالمعالم الدينية الإسلامية فوصفها، فأولى بالمثل اهتماما بذكر معالم النصارى مما يبين عقليته المنصفة وبعده عن التعصب الديني البغيض، فقد وصف كنيسة مريم، والتي كانت بداخل دمشق فحدد مكانتها ومنزلتها عند المسيحيين أنها «ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تبهت الأفكار، وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم عن ذلك»^(١). وفي النص دلالة على مدى سماحة المسلمين في تعاملهم مع الآخر.

ومما أعجب به ابن جبير وهو يزور دمشق تلك المرافق العمرانية جميلة الهندسة، فقد ذكر «المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك، ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره، نوره الله، وهي قصر من القصور الأنيفة، ينصب الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار. فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين، رحمه الله. وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر»^(٢).

ومما سبق ذكره، يتبين لنا كيف استطاع ابن جبير الرحالة أن يعطي وصفا دقيقا ومفصلا في رحلته لبلاد الشام، وهو زمنها كان يعاني من ويلات الحروب الصليبية، كما تعتبر معلوماته المستوحاة من شهاداته أثرا طيبا في دفع البحث التاريخي نحو دراسات استشراقية عربية وإسلامية، إذ أنها أصدق صورة للعصر الذي عاش فيه صاحبها والتي يحرص كل مؤرخ وباحث الاستفادة منها في جوانب تخص التطورات السياسية والحضارية للعالم الإسلامي عامة والشام على وجه التحديد.

(٤) نفسه، ص ٢٥٥.

(١) نفسه، ص ٢٥٦.

المصادر والمراجع

- ١- أخبار المهدي بن تومرت، أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيدق)، تحقيق، عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط٢، ١٩٨٦.
- ٢- الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، شرح وتقديم، يوسف علي الطويل، دار الكتاب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.
- ٣- الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، مركز الدراسات الشرقية، مدريد، ط٢، ١٩٨٢.
- ٤- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، اغناطيوس يولبا نوفتش كراتشكوفسكي، ترجمة، صلاح الدين عثمان هاشم، دار الثقافة في جامعة الدول العربية، ١٩٥٧، القسم الأول، ص ٢٩٩.
- ٥- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، عبد المالك المراكشي، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.
- ٦- الرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، دار البيان العربي، جدة ، د.ت.
- ٧- العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن ابن خلدون، مؤسسة جمال، بيروت ١٩٧٩.
- ٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقرئ التلمساني، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤.
- ٩ - المقدمة، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق، درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢.
- ١٠- الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١.

/ /